زاد الداعية

د. يوسف القرضاوي يكتب: لا يُبنى المجتمع بالتشريع وحده



الأربعاء 28 يوليو 2021 01:40 م

إن الإسلام ليس مجرد تشريع وقانون؛ إنه عقيدة تفسر الوجود، وعبادة تربي الروح، وأخلاق تزكى النفس، ومفاهيم تصحح التصور، وقيم تسمو بالإنسان، وآداب تجمل بها الحياة، وآيات الأحكام التشريعية لا تبلغ عشر آيات القرآن، وهي ممزوجة مزجاً بالعقيدة والضمير، مقرونة بالوعد والوعيد، مرتبطة ارتباطاً عضوياً بسائر توجيهات القرآن.

إقرأ مثلاً في أحكام الأسرة قوله تعالى: {الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:229). هذا ليس تشريعاً جافاً كمواد القانون، بل هو تشريع ودعوة وتوجيه وتربية وترغيب وترهيب.

واقرأ في أحكام الحدود قوله جل شأنه: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (المائدة:38-40)

هنا نجد كذلك التشريع الزاجر، مقروناً بالوعد والوعيد، حاملاً التخويف والترجية، والتوجيه والتربية، مرغباً في التوبة والإصلاح، مذكراً بأسماء الله الحسنى: العزيز إذا أمر ونهى، الحكيم فيما شرع، والغفور الرحيم لمن تاب وأصلح. مالك الكون، وصاحب الخلق والأمر، وهو على كل شئ قدير. هذا هو سياق التشريع في القرآن، ومثله في السنة، فليس بالتشريع وحده يبنى المجتمع المسلم، بل لا بد من وسيلتين أخريين: الدعوة والتوعية، ثم التعليم والتربية، إلى جوار التشريع والقانون، بل قبل التشريع والتقنين.

ولهذا بدأ الإسلام بالمرحلة المكية -مرحلة الدعوة والتربية- قبل المرحلة المدنية، مرحلة التشريع والتنظيم، وفى هذه المرحلة نرى التشريع يمتزج بالتربية أيضاً امتزاج الجسم بالروح. إن مجرد تغيير القوانين وحده لا يصنع المجتمع المسلم. إن تغيير ما بالأنفس هو الأساس.

وأعظم ما يعين على تغيير ما بالأنفس هو الإيمان الذي ينشئ الإنسان خلقاً آخر، بما يضع له من أهداف، وما يمنحه من حوافز وضوابط، وما يرتبه على عمله من جزاء في الدنيا والآخرة، والإسلام كل لا يتجزأ، فإذا أردنا أن نحارب جريمة مما شرعت له الحدود، فليست محاربتها بإقامة الحد فقط، ولا بالتشريع فقط، بل الحد هو آخر

الخطوات في طريق الإصلاح.

إن العقـاب إنمـا هو للمنحرفين من النـاس، وهؤلاء ليسوا هم الأكثرين، وليسوا هم القاعـدة، بـل هم الشواذ عن القاعـدة، والإسـلام لم يجئ فقـط لعلاج المنحرفين، بل لتوجيه الأسوياء ووقايتهم أن ينحرفوا، والعقوبـة ليسـت هي العامل الأكبر في معالجة الجريمة في نظر الإسلام، بل الوقاية منها بمنع أسبابها هو العامل الأكبر، فالوقاية دائما خير من العلاج.

فإذا نظرنا إلى جريمـة كالزنى نجـد أن القرآن الكريم ذكر في شأن عقوبـة الحـد فيها آية واحدة في مطلع سورة النور، وهى قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}(النور:2) ، ولكن السورة نفسـها اشـتملت على عشـرات الآيات الأخرى التي تـوجه إلى الوقايـة من الجريمـة؛ وحسـبنا قوله تعـالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ فِي الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} (النور:19)، وقوله سـبحانه في تنظيم الـتزاور وآدابه، واحـترام الـبيوت ورعـاية حرماتها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْـتَأْنِسُوا وَتُسَـلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النور:27).

ويـدخل فيها آداب الاستئـذان للخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْـتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَـلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَـعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ} (النور:58).

وأهم من ذلـك تربيـة المؤمنين والمؤمنـات على خلق العفـاف والإحصـان، بغض البصـر وحفـظ الفروج، وذلك في قوله جل شأنه: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْـنَعُونَ * وَقُـل لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُـضْنَ مِنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ.. الآية} (النور:30-31)، وهنا برز عنصـر جديـد في الوقاية من الزنا وجرائم الجنس، وهو منع النساء من الظهور بمظهر الإغراء والفتنـة للرجـال، وإثارة غرائزهم وأخيلتهم، حتى جاء في الآيـة الكريمـة قوله تعالى: {وَلا يَضْـرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ} (النور:31)، ثم تختم الآيـة بقـوله سـبحانه: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

ومعنى هـذا: وجوب تطهير المجتمع من أسـباب الإغراء والفتنة، وسد الذرائع إلى الفساد، وأهم من ذلك كله الأمر بتزويـج الأيامى من الرجال والنساء، ومخاطبـة المجتمع كله بـذلك، باعتباره مسؤولاً مسؤوليـة تضامنية: {وَأَنكِحُوا الأَيَـامَى مِنكُـمْ وَالصَّالِحِيـنَ مِـنْ عِبَـادِكُمْ وَإِمَـائِكُمْ إِن يَكُونُـوا فُقَرَاء يُغْنِهِـمُ اللَّهُ مِـن فَضْـلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيـمٌ} (النور:32).

ومسؤوليـة المجتمـع هنـا -وعلى رأسه الحكـام- تتمثـل في تيسـير أسـباب الارتبـاط الحلال، إلى جوار سـد أبواب الحرام، وذلـك بإزاحـة العوائق الماديـة والاجتمـاعيه أمـام راغبي الزواج، من غلاء المهور، والإسـراف في الهـدايا والـدعوات والولائـم والتـأثيث، ومـا يتصل بـذلك من شؤون، ومساعـدتهم -مادياً وأدبياً- على تكوين بيوت مسـلمة؛ فليست إقامـة الحد إذن هي التي تحل المشـكلة، والواقع أن الحد هنا لا يمكن أن يقام بشـروطه الشـرعية إلا في حالـة الإقرار في مجلس القضاء، أربع مرات، على ما يراه عـدد من الأئمـة، أو شـهادة أربعـة شـهود عـدول برؤية الجريمـة رؤيـة مباشـرة أثناء وقوعها، ومن الصـعب أن يتاح ذلك؛ فكأن القصد هنا هو منع المجاهرة بالجريمة، أما من ابتلى بها مستتراً فلا يقع تحت طائلة العقاب الدنيوي وأمره في الآخرة إلى الله سبحانه.

.....

* من كتاب "المجتمع المسلم الذي ننشده" لفضيلة الشيخ.